

تاريخية النقد الجزائري الحديث

أ.قديد جمال

جامعة سيدي بلعباس

توطئة

قبل أي ولوج في موضوع بحثنا ارتأينا أن نقوم بمسحة تاريخية للنقد الجزائري في العصر الحديث، وذلك من عصر النهضة إلى نهاية سبعينات القرن الماضي، أي إلى غاية تحوله إلى المذاهب النسقية.

ولا يخفى على أي دارس أو باحث أو حتى قارئ، أن النقد لدينا واكب الإبداع الأدبي فهما متناسبان طرديا -بلغة الرياضيات- فلقد مر الأدب لدينا معظم القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين بنكسة سببها الاستعمار، فلا يكاد المقلب لدفاتر النقد الجزائري أن يجد من بحثوا أو أرخوا لهذه الفترة أدبيا إلا إشارات، وبسوء اضطراب في الإحالة والتوثيق، أو سكوت عن الإحالة على المصادر التي استقوا منها أصلا، مما يبرهن على وجود نقص مزرر في المعلومات والنصوص معا، فقد تحدث عن هذه الفترة مثلا أبو القاسم سعد الله في كتابه "دراسات في الأدب الجزائري الحديث" ومحمد طمار في كتابه "تاريخ الأدب الجزائري" وصالح خرفي في كتابه "الشعر الجزائري الحديث" ومحمد ناصر في كتابه "الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية" وعمار طالي في كتابه "آثار ابن باديس" والريعي بن سلامة في كتابه "موسوعة الشعر الجزائري" وعبد الله ركيبي في كتابه "الشعر الديني الجزائري الحديث"، إضافة إلى محمد مصايف وعبد الملك مرتاض ...¹

وعليه فقد انتكس الأدب وانتكس معه النقد في هذه الفترة رغم أن الثورة الأدبية الجزائرية قد بدأت مع الأمير عبد القادر ولم تنتهي منذ ذلك الحين، فإن حمدة نيران الحرب التي قضت على سلاسل العبودية فإن الثورة السياسية والاجتماعية والثقافية لا زالت مستمرة، فتمسك الشعب بلغته وضمين بها، وأمكن نفرا من المثقفين أن ينفلتوا من تلك الحواجز التي فرضها الاستعمار، فلجأت منهم إلى تونس وأخرى إلى مصر.²

حاول هؤلاء المحافظة على اللغة والأدب، فإذا كانت مهمة الأديب التعبير عن إحساسه بما حوله والواقع الذي يصوره بحيث يعكس ذلك في صورة جميلة مؤثرة، بمعنى آخر إذا كان الأديب يشكل المادة الأولى الأساسية ليجعل منها عملا مؤثرا قادرا على نقل الإحساس بالجمال من جهة وإبراز القيم الإنسانية من جهة أخرى، إذا كانت هذه مهمة الأديب المبدع فإن مهمة الناقد هي تفسير هذا الجمال وإظهار طريقة الأديب في البحث على الخبر أو نقد الحياة وما فيها من زيف أو ظلم أو شر.³

وهذا بالفعل ما قام به نقادنا منذ نهاية عشرينات القرن الماضي، وإن بدت أعمالهم في مجملها إصلاحية التزامية، نظرا للأحوال التي كان يعيشها المجتمع الجزائري آنئذ. إلا أنها كانت تتحسس دوما مظاهر الجمال في أدبنا أو أدب غيرنا، كما حاولوا معالجة المضامين المتعلقة بالحياة الاجتماعية والسياسية، أو نقد الحياة نفسها وما فيها من زيف أو استبداد أو لا التزام.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذه البحوث النقدية -إن صح التعبير- لم تكن ناضجة مقننة ومؤسسة، بقدر ما كانت إصلاحية وإن كانت ظاهرة النقد هي التي تسيرها.

ولعل نظرة متفحصة في الأوضاع والظروف التي كان يعيش فيها المجتمع الجزائري قبل حرب التحرير تعطينا صورة واضحة على معاناة هذا المجتمع من قهر، واضطهاد، وفقر وحرمان، هذا جعل المجتمع منشغلا -إلى حد ما- بمومه

اليومية التي لا تنتهي فيجد نفسه على هامش الاهتمامات الثقافية والأدبية، اللهم إلا من وكلت لهم مهمة الإصلاح وهم قليل⁴.

وإذا عدنا إلى علاقة نقادنا بأدبائنا -قبل الثورة- ألفينا صراعا بين الطرفين مرة يشتد ومرة يخفت، ويحضرنا هنا آراء بعض نقادنا عقب أحداث الثامن من ماي 1954، فلقد ذهب بعض هؤلاء إلى تفسير صمت الأدباء رغم جسامه الأحداث، على أنه جبن وتهرب من المسؤولية طلبا للسلامة، وقد وجدنا هذه النظرة عند عبد الوهاب بن منصور خاصة، والذي وقف من الأدباء موقفا متطرفا، وشن عليهم هجوما عنيفا في مقال له بعنوان "ما لهم لا ينطقون؟" وقد استفز به عددا كبيرا من النقاد، واستمرت الردود والمناقشات لبضع سنوات، وقد حدث الاشتباك الكبير والرئيسي بين بن منصور وأحمد رضا حوحو، هذا الأخير الذي أبدى تبرما من المجتمع وعتب عليه مبينا الأسباب التي دعت به إلى ما ذهب إليه، وذلك ما لم يستصغه بن منصور فردّ عليه في مقال "لو جدوا لوجدوا!" وفيه دفاع عن القراء والمجتمع بصفة عامة، وقد كان عبد الوهاب بن منصور، وأبو القاسم سعد الله قد هاجما الأديب وأتهماه بالتقصير حينما وبالقصور حينما آخر، فإن نقادا آخرين قد دافعوا عنه، مذكرين بالمشاكل العويصة التي تعترض سبيله، والمخاطر التي تترصص به. وهذا حمزة بكوشة هاجم هو الآخر الأدباء والشعراء منهم وفي مقاله "هل في الجزائر شعراء؟"⁵.

وهكذا نلاحظ أن النقد الأدبي بدأ ينشط عندما بدأ في نشاطه ونعني بذلك بعد عشرينات القرن الماضي عندما بدأت الأقلام الجزائرية تبدع.

1- المراحل التي مرّ بها النقد الحديث في الجزائر:

لقد قسم الأستاذ عبد الله ركيبي النقد الجزائري الحديث إلى ثلاثة مراحل وقد وصفها بالتداخل، إلا أن لكل منها سمات خاصة بالمقارنة بظروف الأدب ونظرة الأدباء، ونظرا لواقع الثقافة التي تعرضت لمؤثرات وعوامل ربما أعاقَت الأدب والنقد على أن يتطور في الاتجاه الصحيح.

أ- المرحلة الأولى:

تمتد من نهاية القرن التاسع عشر حتى قيام الحرب العالمية الثانية، فقد كان النقد قديما يهتم بالجزء دون الكل، فالنقاد كان لغويا جزئيا صرفا، اتضحت فيه العناية باللغة، بمفرداتها وتراكيبها اهتم فيها النقاد أو الأدباء لأنه لم يظهر فيها نقاد بالمعنى المعروف -اهتموا بالوزن والقافية بالقواعد والتقاليد البلاغية المعروفة في الأدب العربي-، وقد اهتم الأدباء بالمعاني الجزئية في القصيدة لا بالقصيدة بوصفها كلاً واحداً، مثلما فعل أصحاب مدرسة الديوان⁶.

وقد مثل لنا من هذه الظاهرة بمعركة قامت بين عالمين دينيين جزائريين في المرحلة الأولى، وبالرغم من أنها معركة دينية فقد تطورت إلى حوار أدبي، ومناقشات أدبية على أن هذه المعركة بين "أحمد المجاهد الحسيني" و "محمد بن مصطفى المشرفي". هذه المحاورات بينهما لم تتعدى الحديث عن النحو والقواعد اللغوية والصرفية مثل كلمتي (بدل - أبدل) أو الحديث عن البحور المستعملة والمهملة⁷.

ونبقى مع نفس الفترة، فبتغير الحياة الفكرية والأدبية -نوعا ما- في بداية القرن العشرين بدأ النقد الأدبي يتطور نسبيا، ولن بقين النظرة اللغوية والجزئية هي السائدة، فقد بدأ الأدباء يعنون بمفهوم الشعر ودوره في الحياة، والذين تعرضوا بالنقد لهذه الفترة هم قلة أحسوا بضعف الشعر والخطابة في العقد الأول من القرن الماضي، حيث عبروا عن تشاؤمهم من وضع الشعر وضعفه، بل وسخروا من هذا الواقع بطريقة طريفة.

وقد كانت وظيفة الشعر في هذه الفترة هي خدمة الدين والشعب وقضايا المجتمع أي أنه شعر ملتزم، كما أن فعل الخير هو وظيفة أساسية في مفهوم الشعر في العشرينيات وما بعدها وهذا يساير الفكر الديني الإصلاحي. كما أن النظرة الجدلية للشعر بوصفه فنا جادا ملتزما هي الرؤية العامة للشعراء والمحور الذي تدور عليه قصائدهم. ويطالب الشاعر بأن يكتب بلغة يفهما الناس ويستجيبون لها، ويرى أن الشعر ليس وزنا وقافية بل هو حس وشعور صادق وخيال خصب.⁸

وأيضا نقادنا أن التكلف بذهب بروح الشعر والإنشاء معا، -فهذا حمود رمضان- يتعرض لشوقي بالنقد، ولم يعتبره مجددا بل سلكه في عداد المقلدين ويعترف بأن "شوقي" أحيا الشعر العربي ولكنه مع ذلك لم يأتي بشيء جديد، لم يعرف من قبل، أو سنّ طريقة ابتكرها من عنده خاصة به دون غيره أو اخترع أسلوبا يلاءم العصر الحاضر. وخلاصة هذه المرحلة أن الأصوات النقدية والأدبية لم تجد صدقها في النفوس لأن الشعراء والنقاد كانوا من المحافظين ومن رجال الدين المصلحين، ثم إن التقاليد النقدية لم تترسخ في البيئة الأدبية في الجزائر، ويضاف إلى هذا أن النقد كان ناذرا إن لم نقل معدوما.

ب- المرحلة الثانية :

عرفت هذه المرحلة والتي تمتد من نهاية الحرب العالمية الثانية إلى الاستقلال انتعاشا أدبيا وثقافيا، ففي سنة 1946 عاد الكاتب الجزائري أحمد رضا حوحو إلى أرض الوطن، وسنة 1947 رجعت دورية "البصائر" إلى الصدور برئاسة محمد البشير الإبراهيمي، كما أسس "رضا حوحو" جريدة "الشعلة". بمعية ثلة من أصدقائه الأدباء والمثقفين، وأسّس في سنة 1948 المؤرخ والفكر الجزائري إسماعيل العربي مجلة "إفريقيا الشمالية"، كما تميّزت هذه المرحلة باستمرار البعثات العلمية إلى تونس والمشرق العربي.

ويعتبر "أحمد رضا حوحو" أديب هذه المرحلة وناقدها دون منازع، سواء من حيث غزارة الإنتاج الإبداعي وتنوعه (رواية، قصة قصيرة، مسرحية، خواطر) أو من حيث الكتابة النقدية وتطور رؤيتها أيضا، وقد ساعده على هذا النضوج ثقافته الفرنسية وإقامته لمدة طويلة في المملكة العربية السعودية.⁹

وقد يخرج الباحث بنتيجة من هذه المرحلة مفادها أن ما جدّ فيها من أحداث وما اتصل فيها بالأدب وغيره، كما استمر الأدب نثرا وشعرا على حاله القديمة، وإن كانت الثورة قد أعطت مجالا جديدا للأدباء ساعدهم على أن يتطوروا نسبيا، في إنتاجهم شعرا أو قصة، فإن النقد لم يتطور أثناء حرب التحرير لظروف تتصل بالنشر وبالحياة الجديدة التي لا تترك الوقت الكافي للنقاد بأن يتأمل ويفسّر ويقارن ثم يستخلص النتائج ويضع الموازين والتقاليد والقواعد.¹⁰

ج- المرحلة الثالثة :

لما انتصرت الثورة وجاء الاستقلال حاول الأدباء والنقاد القيام بما يمكن أن نسميه الإصلاح الذاتي والمراجعة، فانطلق هؤلاء يعيدون النظر في الماضي ويضيفون ما فيه من عناصر متداخلة غطت على الجوهر والأصيل، كما أرادت أن تكشف عن الزيف الذي علق به في شتى مناحي الحياة، كذلك تفجّرت معارك دارت حول الثقافة والقومية، وحول الأدب، حول الفن، حول السياسة، حول التفكير الواقعي الموضوعي، حول الحضارة المعاصرة، حول اللغة العربية وغيرها من القضايا.¹¹

وبعض النقاد يعد هذه المرحلة من أبرز وأهم فترة شهد فيها النص الأدبي والنقد الجزائريين تطورا وتنوعا، فقد عكف بعض النقاد يعرفون بالأدب الجزائري وبمعطياته وبقيضياه بصفة منتظمة في بعض المجالات العربية، ومن أمثلة ذلك ما كان يقوم به الدكتور "أبو القاسم سعد الله" في نشره سلسلة مقالات في مجلة الآداب التي يصدرها في بيروت والدكتور "سهيل

إدريسي" وقد أرّخ في هذه المقالات لمسيرة الأدب الجزائري الحديث مبرزا أهم المراحل التي قطعها، وأبرز أعلامها منذ فترة الأمير عبد القادر إلى غاية الخمسينيات¹².

إن الأوضاع والأحوال التي عقيبت الاستقلال كان لابدّ للأدب والنقد على السواء أن يتأثرا بهذه الأوضاع، وكان لازما أن تظهر محاولات التجديد في الأدب وأخرى للنقد تقويما من جهة وإرساء لتقاليد من جهة ثانية، ولعلّ أهم القضايا التي أثّرت وقتئذ، قضية الشكل والمضمون، وقضية الالتزام في الأدب وكذا قضية الأدب الهادف، ووحدة القصيدة وغير ذلك من الانشغالات النقدية. كما ظهر بعد الاستقلال «ما يمكن أن سميته النقد الانطباعي التأثيري وهو الذي يعبر فيه الناقد عن إحساسه الأول بما يقرأ فيعبر عن هذا في مقال يكشف فيه عن ما أحسه في هذا العمل الأدبي من أسلوب جميل أو ما انطبع في ذهنه ووجدانه من شعور لذيد أو غير لذيد أو ما أثار في نفسه من أفكار وآراء يوافق عليها أو لا يوافق ... إلى جانب هذا اللون يوجد النقد المنهجي التطبيقي نوعا ما بالنسبة للشعر والقصة القصيرة ... التي قدّمت عن الأدب الجزائري، وقد كان من أهدافها وأغراضها وضع أسس واضحة لدراسة الأدب الجزائري وتقريبه على نحو يكشف ما فيه من أصالة وقيم جميلة، ومما فيه من دعوة للخير والحق والجمال»¹³.

بيد أن هذه الدراسات الأكاديمية يغلب عليها الطابع التاريخي أكثر ما ينطبق عليها الوصف بأنها نقد جمالي، لأنّ العناية في ما انصبت على المراحل الأدبية إلى حدّ ما، في حين أن الدراسة الأدبية النقدية يفترض أن تتناول العناصر المختلفة التي يتكون منها العمل الفني شكلا أو مضمونا، حتى تستوفي الدراسة جميع مناحيها¹⁴.

ولا نبرح النقد الجامعي دون أن نذكر بعض الأعمال، فقد أعد الدكتور أبو القاسم سعد الله دراسة عن الشاعر الجزائري "محمد العيد آل خليفة" وذلك بجامعة القاهرة¹⁵.

وتعدّ دراسة الدكتور عبد الله ركيبي عن القصة الجزائرية¹⁶ أوّل دراسة أكاديمية تعالج موضوع تأسيس الخطاب السردى، وتطوّره في الأدب الجزائري الحديث، وبعد ذلك قدّم الدكتور صالح خرفي بحثه "الشعر الجزائري الحديث"¹⁷. دون أن نغضّ الطرف عن ما أنتجه الدكتور محمد مصايف ومنها "دراسات في الأدب والنقد" وكتاب "فصول في النقد الأدبي الجزائري الحديث"، كما أزدرد كتابا عن جماعة الديوان وماهية النقد لديها.

بمحمل القول في تقديرنا أن المراحل التي مرّ بها الأدب والنقد الجزائريين -باعتبار أنّ الأول سبب وجود الثاني- كانت طبيعية نظرا للظروف التاريخية والسياسية والاجتماعية التي عايشها المجتمع الجزائري، ففي المرحلة الأولى لا يمكن الحديث عن أي نقد ما دام النص الأدبي قد غييه الاستعمار والفقر والجهل والجوع والمرض وما إلى ذلك من مشاكل على كل المستويات، وفي المرحلة الثانية ونظرا للجهود الإصلاحية بدأ النص الأدبي يأخذ نفسه مع أدباء جمعية العلماء المسلمين ومع بعض النقاد الذين ذكرناهم آنفا. وبالتالي بدأ النقد يشقّ طريقه، غير أنه لا يمكن الحديث عن نقد جزائري إلا بعد فترة الاستقلال لتحسن الأسباب التي أعاقَت نشاط الأدباء والنقاد، وعلى رأسها الحرية والاحتكاك بالوفاد من المشرق أو من الغرب، وبالنشاطات الأكاديمية والتي لم يتسع لنا المجال لذكرها فهذا ليس مجال إبحارنا.

2- الممارسة النقدية في الجزائر ومناهجها :

إنّ البحث في الممارسة النقدية في الجزائر، يقودنا إلى الكشف عن الوعي الأدبي وانتقاله بين الذاتية والموضوعية، بمعنى آخر نجد تباينا بين المستويين الفكري والثقافي عند النقاد، والمتصفح للمدونات النقدية الجزائرية الحديثة ثم يقارنه بما أبدع في المشرق يلاحظ تفاوتات بيننا بينهما، سواء على مستوى الوعي الأدبي والفكري أو على مستوى الممارسة النقدية والتي لم

تكن مبنية - في معظمها - على فكر نقدي قادر على التمثل والاستيعاب، وهذا سببه - في رأينا - هو انعدام نظريات نقدية فلسفية تستند إلى مدارس نقدية حديثة.

ولا يمكننا في هذه الإشارة إلى التعرض بالتفصيل للمذاهب والتيارات والمناهج النقدية لدينا لأن ذلك قد يطول بنا، ولأنه ليس موضوع بحثنا ولكن نستعرض إلى ذلك بقدر ما يمهّد لموضوع بحثنا، ولعلّ ما يلاحظه الدارس للنقد هو هذا التنوع في المناهج خلال الممارسة النقدية التطبيقية، وحتما هذا التنوع في شموليته يتضمن عدة مناهج وتيارات قد تتداخل فيما بينها ومنها: المنهج التحليلي، المنهج اللغوي، المنهج النفسي، المنهج الجمالي، المنهج التاريخي، المنهج المضموني. ورغم هذا الاتساع المنهجي للنقد الحديث ألفينا أربع مناهج عرفتها الممارسة النقدية في بلادنا وهي: المنهج العلمي الموضوعي، المنهج التاريخي والمنهج الجمالي والمنهج النفسي.

ومن خلال قراءتنا لبعض المتون النقدية الجزائرية قسمنا نقادنا وفق هذه المناهج الأربعة، فالمنهج العلمي الموضوعي يمثل كل من الدكتور محمد مصايف، والدكتور عبد الله ركيي وعثمان سعدي والناقد واسيني لعرج¹⁸. وكانت دراسات هؤلاء أكاديمية علمية.

وإذا وقفنا قليلا مع نقادنا محمد مصايف نجده صاحب عدة دراسات وأبحاث أكاديمية في مجال الأدب الجزائري والعربي¹⁹. فهو ناقد صاحب ثقافة معرفة أدبية متنوعة، ولم تكن مدارسته للأدب مجرد تحصيل قراءة، بل كان يعايش النصوص ويحسّنها ويفسرها بتوظيف المنهج العلمي الموضوعي، فكان يتساءل النصوص ويستقرئها وقيمها، وكان نقده في الغالب يصدر عن نظرة جمالية وموضوعية مستعينا بقدر كبير بالواقعية والالتزام والموقف الأدبي.

أمّا المنهج التاريخي فأبرز من تبناه من نقادنا الدكتور "عبد الملك مرتاض" خاصة عندما يدارس الأدب الجزائري، فقد حاول أن يوضع الأدب الجزائري من تاريخ النهضة الفكرية والثقافية، ومؤلفاته في هذا السياق عديدة نذكر منها على الخصوص مؤلف "نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر" حاول فيه رصد الإرهاصات الأولى لنهضة الأدب في الجزائر. ويعتبر "صالح خرفي" من أسس وأرسى معالم هذا المنهج في الجزائر أيضا - بدراسته المطولة ما بين 1830 إلى 1962 للشعر الجزائري الحديث - ثم المنهج الجمالي فنجد حاضرا لدى الدكتور "محمد ناصر" فنقده لا يقلّ إبداعا عن العمل الفني، فأعماله النقدية تكشف عن لغة جميلة ومرتزة وهادئة، وأسلوبه في بعض الأحيان علمي لكنه متأدب.

ومن نقادنا من كان صاحب شخصية أدبية نقدية لا يخضع لقوالب أو يقع تحت منهج معين، أو نظرية معينة، ربما لتعدد ثقافته وتنوعها، كأن نجد الناقد يجمع في جعبته بين القديم والحديث، بين المحلي والأجنبي ونذكر من هؤلاء بخي بن عودة ومحمد ناصر وإلى حد ما عبد الملك مرتاض خاصة عندما تحوّل إلى الحداثة.

3- تعامل النقد الجزائري مع النص الأدبي :

ما من شك أن الناقد الجزائري خاصة بعد الاستقلال قارب جلّ الفنون الأدبية شعرية كانت أم نثرية ومعظم الأغراض، ونحاول في هذه العجالة بأخذ نموذجين أحدهما للناقد "صالح خرفي" والثاني لـ "محمد ناصر" وسنبحث عن كيفية تعاملهما مع النص الأدبي، وأهم الآراء النقدية التي جاءوا بها.

1.3- صالح خرفي :

لقد كان لهذا الناقد أفكارا نقدية متنوعة متعدّدة وكذا نشاط نقدي على معظم الأغراض خاصة الشعرية، صادفنا له آراء نقدية في الثقافة والفن حيث يعتبر الثقافة مجموعة من القيم الروحية والإنسانية وهي تحتل مرتبة رئيسية في تكوين أفراد

وبناء الشخصية، كما يؤكد على أن الثقافة تعبير أصيل عن التركيب الحضاري لكل أمة بما فيها من قيم وطنية وفكرية واجتماعية وإنسانية. وهذا لا يعني انغلاق الإنسان على نفسه.

وللناقد آراء في الأدب، فإذا كان الفن عند ناقدنا هو نتاج العلاقة التفاعلية بين الفنان والمجتمع فإنّ الأديب بالضرورة هو جزء من هذه العلاقة فهو «صورة للحياة وتعبير عنها يؤثر فيها ويتأثر بها لأنه ببساطة هو تعبير عن الإنسان في هذه الحياة»²⁰. على أن لا يكون هذا التعبير نقلا آليا للواقع بل للتأثير والتفاعل مع هذا الواقع في حدود الالتزام بقضايا الأمة كما أسلفنا الذكر. إذ «أنّ الأدب بكافة فنونه شعرا وقصة ورواية ومسرحية يعدّ المحرك الحقيقي لروح الشعب والمعبّر عن حياته المادية والروحية ومن ثم لا بدّ أن تكون غاية الإنسان لا الجمال فقط، ولا يخفى على أحد أن الأدب كان دائما هو الشرارة الأولى التي انطلقت من الثورات الكبرى ... تلك الثورات التي حرّرت الإنسان من الظلم والسيطرة والعبودية»²¹.

إضافة إلى هذه القضايا المهمة في النقد الأدبي تناول ناقدنا الشعر بالنقد، والقارئ المتعمق لأعمال صالح خرفي - في هذا المجال - يلفيه يلحّ دوما على أهمية الذات معتبرا إياها محور العملية الإبداعية في الشعر وهو يؤكد على أن «التأمل عادة يكون من خلال هذه الذات والتعبير عن الوجدان وحتى من خلال الواقع والمجتمع حيث يكون التعبير صادرا عن تجربة معاشة ولو أنها ذاتية أو اجتماعية فتصبح تجربة عامة تمتزج بلحم الشاعر ودمه، وتسري في حياته وروحه وتغدو جزءا من نفسه وكيانه وبذلك يمتزج الموضوع بالذات ليصير شيئا واحدا»²².

فالناقد يركّز على أهمية العلاقة الجدلية بين الذات والموضوع بمعنى أن من أهم شروط الإبداع الشعري هو التجربة الشعرية والشعورية التي يعيشها المبدع سواء كانت هذه التجربة ذاتية أم خارجية، فالشعر عنده لا ينحصر في النقل الآلي للواقع، ولا هو رموز مبهمه، بل هو رؤية لحقائق يصوغها الشاعر وفق نفسيته ومزاجه.

وأكد صالح خرفي أكثر من مرة على قضية الصدق الفني وهذا الصدق لا يتحقق إلّا بالترفع عن تقليد الآخرين ومتابعتهم فيما يرضونه، وفيما يكرهونه فالشاعر الحق - لديه - هو الذي يعود دوما لذاته ليفسرهما وإلى أحاسيسه فيشخصهما. ولقد نقد الكثير من الإبداعات الشعرية خاصة المحلية كتفاعل الشاعر الجزائري مع عدة قضايا أهمها الدين، العاطفة، الثورة ... بل يذهب إلى أكثر من ذلك في البحث عن النصوص التي اتصفت بالشعر الذاتي لأنه في نظره «لا ينفي الذاتية في الشعر الجزائري نفيًا مطلقًا، فمهما طغت القضية الوطنية فلإحساس والمشارع الفردية طغيانها هي الأخرى»²³. فالناقد برغم قناعته هذه إلّا أنه من خلال كتابه "الشعر الجزائري الحديث" يهتم أكثر بعلاقة الشاعر بالمجتمع لا بذاته وذلك من خلال تتبعه المنهج التاريخي بنسبة 24.92 % والمضموني بنسبة 47.45 % عن الحجم الفني فلا يتجاوز 4.20 % وهذا نضنه تقصير في حق قناعته.

2.3- محمد ناصر :

من اطلعنا على آراء محمد ناصر النقدية وفيما يخص المنهج والأدوات فهو لا يجنّد المنهج لأن ذلك يؤدي إلى الارتجال، ويؤدي أيضا إلى إحداث ملل وتناسي ما سواه، فالناقد «إذا نظرنا إلى جانب واحد وحكم على الأثر الأدبي من خلال هذه النظرة الجزئية كان الحكم جزئيا وناقصا لا قيمة له إطلاقا»²⁴.

والمنهج عنده ينطلق من الفنية والالتزام معا إضافة إلى اتساع الثقافة النقدية والأدبية والانفتاح على الآخر وعدم التسرع في إصدار الأحكام ومعاصرة الموجود وتجنّب القوالب الجاهزة المسبقة الأحكام. فكرة طالما أكد عليها الناقد بهذا الخصوص

هي أن الناقد والأديب على السواء إبنى مجتمعهما شاءا أم أبى، ولذلك فعليهما اتخاذ منهج إيجابي تفاعلي ديناميكي لمسيرة المجتمع وتطلعاته.

يحاول الناقد التقريب بين المذاهب والمناهج ومن ذلك ما أبداه الرأي في إثارة بعض الأدباء للشعر التقليدي على أنه هو الشعر الحقيقي الذي أثبت صلاحيته عبر القرون، بيد أن طائفة أخرى -هذا حسب رأيه- تساند الشعر الحر وتراه الوحيد الذي يعبر بحق عن المرحلة الحضارية التي تجتازها الأمة، إذ أن هذه الأشعار جاءت نتيجة للعديد من المؤثرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والبيئية في الاتجاهات الثلاث التقليدي، الوجداني الرومانسي والاتجاه الجديد.

فاهتمام الناقد بالشعر الجزائري الحديث جاء بعد جهود التي بذلها كل من الدكتورين صالح خرفي وعبد الله ركيبي في مجال دراسة الشعر الجزائري ودورهما الرائد في تمهيد هذا الطريق الصعب، غير أن تلك الدراسات -في نظره- ستظل في حاجة إلى دراسات أخرى تعززها وتتكامل معها لأن دراسة الشعر من الجانب المضموني وحده لن يقدم التصور الكامل للعمل الشعري، كما أن تناوله من زاويته الفنية وحدها لن يكون معيارا صحيحا لتقييم هذا الشعر ووضعه في مكانته اللائقة به. ففهم الشعر عند الناقد من حيث أنه «لغة خاصة، هو الوسيلة لفهم موضوعه أو الوصول إلى مستوياته الدلالية المختلفة، وليس العكس ذلك لأن الشعر يرتبط أكثر ما يكون بالانفعالات النفسية»²⁵. بل هو لغة عواطف وأحاسيس قبل أن يكون لغة فكر وعقل فضرورة دراسته من الجانب الشكلي مكمل جانب المضمون فيه.

هذه مجرد رؤية جزئية بسيطة عن الشعر، وإذا انتقلنا إلى السرديات فنجد يستعمل المنهج نفسه والتيار نفسه وهو الاعتماد على الوصف للواقع.

وكخلاصة لهذا فإن النقد الجزائري الحديث في فترة ما بعد الاستقلال اعتمد على الجانب التاريخي والمضموني بصفة واسعة إلا أننا لمسنا كتاب محمد ناصر بعد ذلك في النقد الفني ليكمل الجزء الناقص. وهذا ما سوف نتطرق له خلال الفصول اللاحقة.

الهوامش

¹ ينظر: عبد الملك مرتاض، مقدمة منهجية في دراسة الشعر الجزائري أثناء القرن العشرين، دراسات جزائرية، عدد 3 ماي 2006، جامعة وهران، ص 77.

² ينظر: محمد طمار، تاريخ الأدب الجزائري، المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص 343.

³ ينظر: عبد الله ركيبي، تطور النثر الجزائري الحديث، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، 1978، ص 239.

⁴ ينظر: عمار بن زايد، النقد الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990، ص 59 وما بعدها.

⁵ ينظر: عمار بن زايد، النقد الجزائري الحديث، ص 56-57.

⁶ ينظر: عبد الله ركيبي، تطور النثر الجزائري الحديث، ص 241.

⁷ عبد الله ركيبي، تطور النثر الجزائري الحديث، ص 241-242.

⁸ ينظر: صالح خرفي، حمود رمضان، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ص 97 وما بعدها.

⁹ ينظر: شريط أحمد شريط، مباحث في الأدب الجزائري المعاصر، إتحاد الكتاب الجزائريين، الجزائر، 2001، ص 09.

¹⁰ ينظر: عبد الله ركيبي، تطور النثر الجزائري الحديث، ص 254.

- ¹¹ ينظر : عبد الله ركيبي، تطور النثر الجزائري الحديث ، ص254.
- ¹² ينظر : أبو القاسم سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، دار الآداب، بيروت، لبنان، ط02، 1977، ص133 وما بعدها.
- ¹³ عبد الله ركيبي، تطور النثر الجزائري الحديث، ص255.
- ¹⁴ ينظر : عبد الله ركيبي، تطور النثر الجزائري الحديث ، ص256 وما بعدها.
- ¹⁵ ينظر : أبو القاسم سعد الله، شاعر الجزائر محمد العيد آل خليفة، المؤسسة الوطنية للكتاب والدار العربية للكتاب، الجزائر-تونس، ط02، 1984.
- ¹⁶ ينظر : عبد الله ركيبي، القصة الجزائرية القصيرة، الدار العربية للكتاب، ليبيا-تونس، ط03، 1977.
- ¹⁷ صالح خرفي، الشعر الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984.
- ¹⁸ يمكن العودة إلى الهوامش للاطلاع على مؤلفات النقاد المذكورين.
- ¹⁹ من مؤلفاته: فصول في النقد الأدبي في الجزائر، الرواية العربية الجزائرية بين الواقع والالتزام، النقد الأدبي الحديث في المغرب العربي، النثر الجزائري الحديث، دراسات في النقد والأدب وغيرها.
- ²⁰ محمد طار يحياوي، أحاديث في الأدب والنقد، عن حوار أجراه مع عبد الله ركيبي ونشره في جريدة المساء بتاريخ 1987/01/17 بعنوان: أدباء السبعينات يمتازون بجرأة التجريب، شركة الشهاب، الجزائر، 1990، ص13.
- ²¹ محمد مصايف، النقد الأدبي الحديث، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979، ص277-278.
- ²² عبد الله ركيبي، الشاعر جلواح من التمرد إلى الانتحار، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص293-294.
- ²³ صالح خرفي، الشعر الجزائري الحديث، ص07.
- ²⁴ محمد مصايف، دراسات في النقد والأدب، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص16.
- ²⁵ محمد ناصر، الشعر الجزائري الحديث - اتجاهاته وخصائصه الفنية، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان، ط01، 1985، ص06 وما بعدها.